روى مسلم في صحيحه عن جرير بن عبدالله البجليّ رضي الله عنه قال: سألت النّبيّ ﷺ عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصرف بصري(١) وروى أبوداود عن ابن بُريدة أن رسول ﷺ قال لعليّ: ياعليّ، لا تتبع النّظرة النّظرة، فانّ لك الأولى، وليس لك الآخرة(٢) وفي الصّحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: كُتب على ابن آدم حظُّه من الزّنا، أَدْرَكَ ذلك لا محالة، فزنا العينين النّظر، وزنا اللّسان النّطق، وزنا الأذنين الاستماع، وزنا اليدين البطش، وزنا الرّجلين الخُطَى، والنّفس تتمنّى وتشتهي، والفرج يصدّق ذلك أو يكذّبه(٣).

وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ
يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ
زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ
وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ
ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ
أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ
أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ
ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ
وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟
إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٣.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٥.

ويحفظن فروجهنّ: قال سعيد بن جبير: عن الفواحش(١).

ولا يبدين زينتهنّ إلاّ ما ظهر منها: ولا يُظْهرن شيئاً من الزّينة للأجانب إلاّ ما لا يمكن إخفاؤه(٢) ولا يظهرن للنّاس الّذين ليسوا لهنّ بمحرم زينتهنّ. وهما زينتان. إحداهما: ما خفي وذلك كالخَلْخال والسّوارين والقُرْطين والقلائد. والأخرى ما ظهر منها. وذلك مختلفٌ في المعنيّ منه بهذه الآية(٣) ونودّ أن نقتبس بعض النّصوص في الزّينة من المصادر الموثوقة.

من الزّينة ظاهرٌ وباطن. فما ظهر فمباحٌ أبداً لكلّ النّاس من المحارم والأجانب. وأمّا ما بطن فلا يحلّ إبداؤه إلاّ لمن سمّاهم الله تعالى في هذه الآية أو حلّ محلّهم(٤).

لا يحلّ لامرأةٍ تؤمن بالله واليوم الآخر أن تبدي زينتها إلاّ لمن تحلّ له، أو لمن هي محرّمةٌ عليه على التأبيد، فهو آمنٌ أن يتحرّك طبعه إليها لوقوع اليأس له منها(٥).

الزّينة على قسمين: خِلْقيّة ومكتَسَبة. فالخِلْقيّة وجهها فإنّه أصل الزّينة وجمال الخِلْقة ومعنى الحيوانيّة، لما فيه من المنافع وطرق العلوم. وأمّا الزّينة المكتسبة فهي ما تحاوله المرأة في تحسين خلقتها، كالثّياب والحليّ والكُحْل والخِضاب(٦).

أمر الله سبحانه وتعالى النّساء بألاّ يبدين زينتهنّ للنّاظرين، إلاّ ما استثناه من

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٧.

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ٩٢.

(٤) تفسير القرطبي ٤٦٢١

(٥) تفسير القرطبي ٤٦١٩

(٦) تفسير القرطبي ٤٦٢١

النّاظرين في باقي الآية حِذاراً من الافتتان. ثمّ استثنى ما يظهر من الزّينة(١) عن ابن عبّاس: ﴿ولا يبدين زينتهنّ إلاّ ما ظهر منها﴾ قال: وجهها وكفّيها والخاتم. وروي عن ابن عمر وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير وأبي الشّعثاء والضّحّاك وإبراهيم النَّخَعي وغيرهم نحوُ ذلك. وهذا يحتمل أن يكون تفسيراً للزّينة الّتي نهين عن إبدائها (٢)ويحتمل أنّ ابن عبّاس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفّين، وهذا هو المشهور عند الجمهور، ويستأنس له بالحديث الّذي رواه أبو داود في سننه عن عائشة رضي الله عنها أنّ أسماء بنت أبي بكر دخلت على النّبيّ ﷺ وعليها ثيابٌ رقاق، فأعرض عنها وقال: يا أسماء، إنّ المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرىَ منها إلاّ هذا، وأشار إلى وجهه وكفّيه(٣). ويقول القرطبيّ(٤) بشأن القول: ﴿إلاّ ما ظهر منها﴾ وبشأن حديث عائشة رضي الله عنها: «لمّا كان الغالبُ من الوجه والكفّين ظهورَهما عادةً وعبادة وذلك في الصّلاة والحجّ، فيصلح أن يكون الاستثناء راجعاً إليهما. يدلّ على ذلك ما رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها. . . . فهذا أقوى في جانب الاحتياط، ولمراعاة فساد النّاس فلا تبدي المرأة من زينتها إلاّ ما ظهر من وجهها وكفّيها، والله الموفّق لا ربّ سواه. وقد قال ابن خُوَيْزِ مَنْداد من علمائنا: إنّ المرأة إذا كانت جميلةً وخيف من وجهها وكفّيها الفتنةُ فعليها سَتْر ذلك. وإن كانت عجوزاً أو مُقَبَّحَةً جاز أن تكشف وجهها وكفّيها».

قال ابن مسعود: ظاهر الزّينة هو الثّياب. وزاد ابن جبير الوجه. وقال سعيد بن جبير أيضاً وعطاء والأوزاعيّ: الوجه والكفّان والثّياب. وقال ابن عبّاس وقتادة

---

١) تفسير القرطبي ٤٦٢٠

٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٧

٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٧ و٤٨

٤) تفسير القرطبي ٤٦٢١

والمِسْور بن مَخْرَمة: ظاهر الزّينة هو الكحل والسّوار والخضاب إلى نصف الذّراع والقِرَطة والفَتَخ(١) ونحو هذا فمباحٌ أن تبديه المرأة لكلّ من دخل عليها من النّاس(٢).

لمّا ذكر الله تعالى الأزواج وبدأ بهم ثنّى بذوي المحارم وسوّى بينهم في إبداء الزّينة، ولكن تختلف مراتبهم بحسب ما في نفوس البشر. فلا مرية أنّ كشف الأب والأخ على المرأة أحوط من كشف ولد زوجها. وتختلف مراتب ما يُبْدَى لهم، فيُبْدَى للأب ما لا يجوز إبداؤه لولد الزّوج(٣).

وفي العصر الحالي اختلفت آراء العلماء في الوجه كما اختلفت آراء العلماء قديماً، هل هو من الزّينة الظّاهرة أم هو من الزّينة الباطنة، وبناءً على ذلك هل يدخل الوجه أو لا يدخل تحت الأمر بإدناء الجلباب في قول الحقّ جلّ وعلا من سورة الأحزاب(٤): ﴿يأيّها النّبيّ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ. ذلك أدنى أن يُعْرَفن فلا يؤذين. وكان الله غفوراً رحيما﴾ لقد ذهب ـ مثلاً ـ الشيخ أبو الأعلى المودودي إلى أنّ الأمر بإدناء الجلباب يشمل الوجه(٥) وذهب الشّيخ محمّد ناصر الدّين الألباني إلى إنّ الأمر لا يشمل الوجه(٦) ولكن من الأَوْلى سَتره(٧).

---

(١) الفتخ بفتحتين وخاءٍ معجمة جمع الفتخة بفتح التاء وسكونها وهي حَلْقةٌ كالخاتم لا فَصّ فيها، فإذا كان فيها فَصٌّ فهي الخاتم.

(٢) تفسير القرطبي ٤٦٢٠

(٣) تفسير القرطبي ٤٦٢٤

(٤) الآية ٥٩

(٥) انظر ـ مثلاً ـ الحجاب ص ٢٩١-٢٩٤ وحكم الوجه ٢٩٤ فما بعدها والنّقاب ٢٩٨ فما بعدها.

(٦) حجاب المرأة المسلمة في الكتاب والسّنّة ٤١ الطبعة الخامسة ١٣٩٨هـ بيروت.

(٧) حجاب المرأة المسلمة ٥

وليضربن بخمرهنّ: وليلقين خمرهنّ، وهي جمع خِمار(١) وهو اسمٌ لما تغطيّ به المرأة رأسها (٢).

على جيوبهنّ: ليسترن بذلك شعورهنّ وأعناقهنّ وقِرَطهنّ(٣) والجيوب: جمع الجيب، من الجَوْب وهو القطع، والجيب هو موضع القطع من الدّرع والقميص(٤) أي الموضع المقطوع من الدّرع والقميص حيث يَدْخُلُ الرأس(٥) قال تعالى(٦): ﴿وثمود الّذين جابوا الصّخر بالواد﴾ أي قطعوا الصّخر بوادي القرى واتّخذوها بيوتاً(٧).

ولا يبدين زينتهنّ: ولا يظهرن زينتهنّ الخفيّة الّتي ليست بالظّاهرة(٨).

إلاّ لبعولتهنّ: إلاّ لأزواجهنّ، واحدهم بَعْل(٩) والبعل هو الزّوج والسّيّد في كلام العرب(١٠).

أو نسائهنّ: قيل عني بذلك النّساء المسلمات(١١) يعنى تُظْهر زينتها أيضاً للنّساء المسلمات دون نساء أهل الذّمّة لئلاّ تصفهنّ لرجالهنّ. وذلك وإن كان

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ٩٤.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «خمر» ١/ ٢١١ وتفسير القرطبي ٤٦٢٢.

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ٩٤.

(٤) انظر تفسير القرطبي ٢٢/ ٤٦.

(٥) انظر ـ مثلاً ـ لسان العرب: «جوب».

(٦) سورة الفجر ٩.

(٧) الجلالين.

(٨) تفسير الطّبري ١٨/ ٩٥.

(٩) تفسير الطّبري ١٨/ ٩٥.

(١٠) تفسير القرطبي ٢٣/ ٤٦.

(١١) انظر ـ مثلاً ـ تفسير الطّبري ١٨/ ٩٥ وتفسير القرطبي ٢٥/ ٤٦.

محذوراً في جميع النّساء إلاّ أنّه في نساء أهل الذّمّة أشدّ، فإنّهنّ لا يمنعهنّ من ذلك مانع. وأمّا المسلمة فإنّها تعلم أنّ ذلك حرامٌ فتنزجر عنه. وقد قال رسول الله ﷺ: لا تباشر المرأة المرأة، تنعتها لزوجها كأنّه ينظر إليها. أخرجاه في الصّحيحين عن ابن مسعود(١).

ويقول أبو الأعلى المودودي(٢): «وأمّا الشّريفات وذوات العفّة والحياء من غير المسلمات فلا جرم أنّهنّ يدخلن في حكم: ﴿نسائهنّ﴾ من الآية المذكورة».

أو ما ملكت أيمانهن: ظاهر الآية يشمل العبيد والإماء المسلمات والكتابيّات. وهو قول جماعةٍ من أهل العلم، وهو الظّاهر من مذهب عائشة وأمّ سلمة رضي الله عنهما(٣).

أو التّابعين غير أولى الإربْة من الرّجال: أو الّذين يتبعونكم لطعامٍ يأكلونه عندكم ممّن لا أرب له في النّساء من الرّجال ولا حاجة به إليهنّ ولا يريدهنّ(٤) وهو الأبله والمعتوه والأحمق(٥) عن ابن عبّاس: فهذا الرّجل يتبع القوم وهو مغفّلٌ في عقله لا يكترث للنّساء ولا يشتهيهنّ. فالزّينة الّتي تبديها لهؤلاء قرطاها وقلادتها وسوارها. وأمّا خَلْخالاها ومعضداها ونحرها وشعرها فإنّها لا تبديه إلاّ لزوجها(٦) والأَرَبَ والإربة: شدّة الحاجة إلى الشّيء. وقوله: ﴿غير أولى الإربة من الرّجال﴾ كنايةٌ عن الحاجة إلى النّكاح(٧) والإربة الفِعلة من الأَرَب مثل الجِلسة من الجلوس والمِشْية من المشي(٨).

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٩

(٢) الحجاب ٢٨٧

(٣) تفسير القرطبي ٤٦٢٥.

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ٩٥.

(٥) انظر تفسير الطّبري ١٨/ ٩٦.

(٦) تفسير الطّبري ١٨/ ٩٥

(٧) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «أرب» ١/ ١٩.

(٨) تفسير الطّبري ١٨/ ٩٧.

أو الطّفل: اسم جنس بمعنى الجمع(١).

الّذين لم يظهروا على عورات النّساء: الّذين لم يطّلعوا بالوطء. يقال ظهرت على كذا أي علمته(٢) أي الّذين لم يكشفوا عن عورات النّساء بجماعهنّ فيظهروا عليها لصغرهن(٣).

ولا يضربن بأرجلهنّ ليُعْلَمَ ما يخفين من زينتهنّ: أي لا تضرب المرأة برجلها إذا مَشَتْ لتُسْمع صوت خَلْخالها، فإسماع صوت الزّينة كإبداء الزّينة وأشدّ، والغرض التّستّر(٤).

لعلّكم تفلحون: لتفلحوا وتدركوا طلباتكم لديه إذا أنتم أطعتموه فيما أمركم ونهاكم(٥).

أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنات بما أمر به المؤمنين من غضّ البصر وحفظ الفرج. ولمّا كانت الأنثى جذّابةً بطبعها للذّكر، وكان كلٌّ من الزّوجين بإذن الله تعالى سكناً للآخر، لذا وضع الشّارع الحكيم كلّ الضّوابط الكفيلة حينما يُلْتَزَم بها بعون الله تعالى أن تسير الأمور في طريقها الصّحيح. لقد أمرت الآية الكريمة السّابقة المؤمنين بأن يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم عن الفواحش. وحينما يوصد الطّريق أمام البصر فلا تزنى العين يوصد الطّريق أمام زنا الفرج تبعاً لذلك من باب الأحرى والأولى. ولمّا كانت الأنثى جذّابةً للذّكر بباعث الغريزة الّتي أوجدها الله تعالى في الجنسين، تماماً كما كان الذّكر جذّاباً للأنثى، فإنّ المرأة حينما كانت أشدّ جاذبيّةً خلقةً وخِرْقةً فقد كان في الآية الكريمة حديثٌ مستفيضٌ متمشٍّ مع جاذبيّة الأنثى. لقد أمرت الآية الكريمة الأنثى بما أُمِر به في الآية الكريمة السّابقة

(١) تفسير القرطبي ٤٦٢٨.

(٢) تفسير القرطبي ٤٦٢٨

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ٩٧.

(٤) تفسير القرطبي ٤٦٢٩.

(٥) تفسير الطّبري ١٨/ ٩٨.

الذّكر من غضّ الطّرف أي صرف النّظر عن الحرام، ومن حفظ الفرج عن الفواحش. ثمّ كان الحديث المستفيض عن الزّينة.

إن ثمّة زينتين للمرأة، باطنة، وهي درجات، ولا يحلّ إبداؤها إلاّ للمحارم الّذين نصّت عليهم الآية الكريمة. وظاهرة، وهي المباح إبداؤها لكلّ النّاس.

وقد عرفنا أنّ العلماء منذ عصر الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم لهم بشأن المراد بالزّينة الظّاهرة رأيان. فمنهم من ذهب الى أن المراد بالزّينة الظّاهرة الثّياب، وعليه فواجب المرأة المؤمنة أن تدني جلبابها الّذي يستر كامل جسدها بما في ذلك وجهها وكفّاها. ومنهم من ذهب إلى أنّ المراد بالزّينة الظّاهرة الوجه والكفّان، وحينما يكون الوجه والكفّان من الزّينة الظّاهرة في رأي هذا الفريق تكون الثّياب تبعاً من الزّينة الظّاهرة من باب الأحرى والأولى. وحينما يكون وجه المرأة وضيئاً يلزمها سَتْره. وثمّة شروطٌ لثياب المرأة المسلمة الظّاهرة نصّ عليها العلماء.

وهذه هي شروط الملابس خارج المنزل أو الحجاب كما جاءت في كتاب حجاب المرأة المسلمة للشّيخ محمّد ناصر الدين الألباني(١):

١ـ استيعاب جميع البدن إلاّ ما استثني.

٢ـ ألاّ يكون زينةً في نفسه.

٣ـ أن يكون صفيقاً لا يشفّ.

٤ـ أن يكون فضفاضاً غير ضيّق.

٥ـ ألاّ يكون مبخّراً مطيّباً.

٦ـ ألاّ يكون لباس الرّجل

٧ـ ألاّ يشبه لباس الكافرات.

٨ـ ألاّ يكون لباس شهرة.

وإنّ من واجب المؤمنات أن يضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ، أي أن يلقين ما يغطّين به رءوسهنّ وأن يسدلنه على الموضع المقطوع من الفستان الّذي يدخلن منه

---

(١) ص١٣ و١١١.

رءوسهنّ، وبذلك لا يبدو شيءٌ من الصّدر أو العنق. وإنّ من واجب المؤمنات ألاّ يبدين زينتهنّ الباطنة إلاّ لأزواجهنّ، ولا نهاية لما تبديه الزّوجة من زينة لزوجها، ولهذا كان الابتداء بالأزواج، ثمّ ذكرت الآية الكريمة المحارم وهم الآباء، وآباء الأزواج، والأبناء، وأبناء الأزواج، والإخوة، وأبناء الإخوة، وأبناء الأخوات، والنّساء المؤمنات ومن في حكمهنّ من العفيفات الشّريفات ذوات الحياء من غير المسلمات، وما ملكت أيمانهنّ من المماليك، والتّابعون غير أصحاب الحاجة إلى النّساء والاشتهاء لهنّ كالأبله والمعتوه ومن إليهما، والأطفال الّذين لم يكشفوا عن عورات النّساء ولم يطّلعوا عليها لصغرهم بجماعهنّ. وبطبيعة الحال تختلف مراتب ما يُبْدَى لهذه الفئات بحسب ما في نفوس البشر. فعلى سبيل المثال، يُبْدَى للأب ما لا يجوز إبداؤه لولد الزّوج.

وواجب المؤمنات حينما يمشين ألاّ يضربن الأرض بأرجلهنّ ليُعْلَمَ ما يخفين من زينتهنّ كالخلاخيل.

وإنّ واجب المؤمنين والمؤمنات أن يتوبوا جميعاً إلى الله تعالى توبةً نصوحاً لعلّهم يفوزون في الآخرة بالنّعيم المقيم في جنّات النّعيم.

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾

وأنكحوا الأيامى منكم: وزوّجوا أيّها المؤمنون من لا زوج له من أحرار رجالكم ونسائكم. والأيامىَ على وزن اليتامىَ، جمع أيِّم. والأيِّم يوصف به الذّكر والأنثى. يقال رجلٌ أيّم وامرأةٌ أيّمٌ وأيِّمةٌ إذا لم يكن لها زوج(١).

والصّالحين من عبادكم وإمائكم: وزوّجوا أيّها المؤمنون أهل الصّلاح من عبيدكم ومماليككم(٢) والعِباد، والعبيد، والأَعْبُد، والعُبُد، كلّها جمع العبد، وهو

(١) انظر تفسير الطّبري ١٨/ ٩٨.

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ٩٨.

المملوك خلاف الحُرّ[1] والإماء جمع الأَمة، وهي المملوكة خلاف الحرّة[2].

جعل الله سبحانه وتعالى كلاً من الزّوجين سكناً للآخر ولباساً معنويّاً يصون بفضل الله تعالى عفّته، وذلك على غرار صون اللّباس في المحسوسات جسده. وفي سبيل تحقيق هذا الهدف النّبيل تأمر الآية الكريمة أولى الأمر في الأمّة الإسلاميّة في هذا الشّأن من حكّام ورجال دين وآباء وأوصياء ومن إليهم أن يزوّجوا من لا زوج له من الجنسين، وأن يسهّلوا هذه المهمّة بكلّ الوسائل، وأن يزوّجوا الصّالحين من عبيدهم وجواريهم للهدف النّبيل ذاته.

وتبشّر الآية الكريمة الّذين يتزوّجون بأنّ الله سبحانه وتعالى سوف يغنيهم من واسع جوده بعد فقر. إنّ الّذين يريدون الزّواج، بقصد العفاف والطّهر والفضيلة، إن يكونوا اليوم فقراء لا مال لديهم، فإنّ الله سبحانه وتعالى سوف يغنيهم من فضله. روى الإمام أحمد والتّرمذيّ والنّسائيّ وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: ثلاثةٌ حقٌّ على الله عونهم: النّاكح يريد العفاف، والمكاتَب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله[3].

وتقرر الآية الكريمة في تذييلها أنّ الله سبحانه وتعالى واسع الفضل والجود، عليمٌ بكلّ نيّةٍ وقولٍ وعمل، مجازٍ على كلّ ذلك.

---

(١) انظر لسان العرب: «عبد».

(٢) لسان العرب: «أما».

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٤

وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾

وليستعفف الّذين لا يجدون نكاحا: استعفف وزنه استفعل، ومعناه طلب أن يكون عفيفا(١) نكاحاً: ما ينكحون به من مهرٍ ونفقة(٢) يقول تعالى ذكره: وليستعفف الّذين لا يجدون ما ينكحون به النّساء عن إتيان ما حرّم الله عليهم من الفواحش(٣) كما قال عليه الصّلاة والسّلام: يا معشر الشّباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوّج، فإنّه أغضّ للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصّوم فإنّه له وجاء(٤).

حتّى يغنيهم الله من فضله: حتّى يغنيهم الله من سعة فضله ويوسّع عليهم من رزقه(٥).

---

(١) تفسير القرطبي ٤٦٣٥.

(٢) الجلالين.

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ٩٨.

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٥ والباءه مثل الباعة والباء: النّكاح والتّزويج. وسمّي النّكاح باءةً وباءً من المباءة لأنّ الرّجل يتبوّأ من أهله أي يستمكن من أهله كما يتبوّأ من داره. اللّسان: «بوأ» والوَجْء والوِجاء أن تُرَضّ أنثيا الفَحْل أي خُصيتاه رضاً شديداً يُذْهب شهوة الجِماع. أراد بِ الصّوم يقطع النّكاح كما يقطعه الوِجاء. اللّسان: «وجأ».

(٥) تفسير الطّبري ١٨/ ٩٨

والّذين يبتغون الكتاب ممّا ملكت ايمانكم: والّذين يلتمسون المكاتبة منكم من مماليككم(١).

فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا: أي قدرةً على الاحتراف والكسب لأداء ما كوتبوا عليه(٢) وقد ذهب كثيرٌ من العلماء إلى أنّ هذا الأمر أمر إرشاد واستحباب، لا أمر تحتّم وإيجاب. بل السّيّد مخيّر، إذا طلب منه عبده الكتابة إنْ شاء كاتبه، وإن شاء لم يكاتبه(٣).

وآتوهم من مال الله الّذي آتاكم: وأعطوهم من مال الله الّذي أعطاكم(٤) قال بعضهم: مقدار الرّبع، وقيل: الثّلث، وقيل: النّصف، وقيل: جزءٌ من الكتابة من غير حدّ. وقال آخرون: بل المراد هو النّصيب الّذي فرض الله لهم من أموال الزّكوات. وهذا قول الحسن، وعبدالرّحمن بن زيد بن أسلم، وأبيه، ومقاتل بن حيّان. واختاره ابن جرير(٥) قال عزّ من قائل(٦): ﴿إنّما الصّدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم وفي الرّقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السّبيل فريضةً من الله. والله عليمٌ حكيم﴾.

ولا تكرهوا فتياتكم على البِغاء: ولا تكرهوا إماءكم على البغاء وهو الزّنا(٧).

إن أردن تحصُّناً: إن أردن تعفُّفا عن الزّنا(٨).

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ٩٨

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ٩٩

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٥

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ١٠٠

(٥) تفسير تفسير ابن كثير ٦/ ٥٦ وانظر تفسير الطّبري ١٨/ ١٠٢.

(٦) سورة التّوبة ٦٠

(٧) تفسير الطّبري ١٨/ ١٠٣

(٨) تفسير الطّبري ١٨/ ١٠٣

لتبتغوا عرض الحياة الدّنيا: لتلتمسوا بإكراهكم إيّاهنّ على الزّنا عرض الحياة وذلك ما تعرض لهم إليه الحاجة من رياشها وزينتها وأموالها(١) عن جابر بن عبدالله قال: كانت جارية لعبدالله بن أُبَيّ ابن سلول يقال لها مُسَيْكة فآجرها أو أكرهها فأتت النّبيّ ﷺ فشكت ذلك اليه فأنزل الله: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصّناً لتبتغوا عرض الحياة الدّنيا. ومن يكرههنّ فإنّ الله من بعد إكراههنّ غفورٌ رحيم﴾ يعني بهنّ(٢) وقوله: ﴿إن أردن تحصّناً﴾ هذا خرج مخرج الغالب(٣) وهذا الغالب هو حال جارية عبدالله بن أبيّ السّبب في النّزول.

تأمر الآية الكريمة المؤمنين القادرين جسدياً على الزّواج ولكنّهم لا يجدون المال الّذي يدفعونه مهراً وينفقون منه أن يطلبوا العفّة ويحرصوا عليها ويعملوا ما يستطيعون من أجلها كالصّوم الّذي أمر به الشّارع الحكيم في مثل هذه الحال، وأن يسألوا الله تعالى دائماً وأبداً العون على الطّهر والعفاف. إنّ على المؤمنين الّذين لا يستطيعون الزّواج أن تكون تلك هي صفاتهم حتّى يغنيهم الله تعالى من واسع فضله بالزّوجات الصّالحات.

وبشأن الّذين يطلبون المكاتبة على العتق مقابل مبلغ من المال من الّذين ملكت أيماننا من العبيد والإماء يحثّ الشّارع الحكيم على الاستجابة لطلبهم ومكاتبتهم على دفع مبلغٍ من المال يدفعونه مقابل نيلهم حريّتهم. ويقيّد الشّارع الحكيم هذا الحثّ بشرطٍ هو أن يعلم السّيّد ويغلب على ظنّه أنّ مملوكه لديه القدرة والدّراية بالعمل الّذي يكسب منه مالاً، كيلا يكون عبئاً على المجتمع.

وتأمر الآية الكريمة كلّ سيّد أن يعطي مكاتبه أو مكاتبته شيئاً من مال الله تعالى الّذي أعطاه عزّ وجلّ إيّاه. وبالإضافة الى بعض المال الّذي يسقطه السّيّد عن عبده أو أمته فإنّ واحداً من المصارف الثّمانية للزّكاة فكّ الرّقاب. وهكذا يتعاون

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/١٠٣

(٢) تفسير الطّبري ١٨/١٠٣

(٣) تفسير ابن كثير ٦/٥٩.

السّيّد والمؤمنون أجمعون على فكّ الرّقاب. والمعروف أنّ دين الاسلام الحنيف شرّع للعتق ولم يشرّع الرّقّ الّذي كان آنذاك قانوناً عالميا.

وتنهي الآية الكريمة عن إرغام الإماء على ارتكاب جريمة الزّنا، وبخاصّة حين يردن تعفّفاً، وعن إكراههنّ على ارتكاب هذا الصّغار من أجل الحصول على عَرَضٍ دنيويّ زائل. وقد عرفنا أن الجزئية الكريمة نزلت في شكوى تلك الأمة الّتي أُكرهت على الزّنا ولهذا جاء في وصف حالها القول: ﴿إن أردن تحصّناً﴾ أي تعفّفاً. ووراء ذلك فالزّنا حرامٌ دائماً وأبداً. وتقرر الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى غفورٌ للاّتي أُكرهن على الزنا رحيمٌ بهنّ.

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

ولقد أنزلنا إليكم ايات مبيّنات: ولقد أنزلنا إليكم أيّها النّاس دلالاتٍ وعلاماتٍ مبيّناتٍ مفصّلاتٍ الحقّ من الباطل وموضّحات ذلك(١).

ومثلاً من الّذين خلوا من قبلكم: من معاني المَثَل العبرة، ومنه قوله عزّ وجلّ (٢): ﴿فجعلناهم سَلَفاً ومَثَلاً للآخرين﴾ فمعنى السَّلَف أنّا جعلناهم متقدّمين يتّعظ بهم الغابرون، ومعنى قوله ومثلاً أي عبرةً يعتبر بها المتأخّرون(٣) فمعنى القول: ﴿ومثلاً من الّذين خلوا من قبلكم﴾: أي خبراً عن الأمم الماضية، وما حلّ بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى(٤).

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ١٠٤.

(٢) سورة الزّخرف ٥٦.

(٣) لسان العرب: «مثل».

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ٦٠.

ولقد أنزلنا إليكم أيها النّاس في هذا الكتاب العزيز آياتٍ واضحات المعاني والدّلائل، وخبراً يجري في مجال العبرة مجرى المثل، هو خبر السّيّدة عائشة رضي الله تعالى عنها في حادثة الإفك، وهو مَثَلٌ للاعتبار من جنس أمثال الّذين خلوا من قبلكم، ومن نوع أخبار الّذين مضوا من قبلكم للاعتبار، وأنزلنا في هذا الكتاب العزيز موعظةً للمتّقين، الّذين ترقّ لها قلوبهم، وتذرف من أجلها الدّمع عيونهم، وينتفعون بها أكبر النّفع.

(٥)

(مثلٌ نورانيٌّ للمؤمنين، ومثلٌ ناريٌّ للكافرين المبتدعين، ومثلٌ مائيٌّ للكافرين المقلّدين)

الآيات (٣٥-٤٠)

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ
الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ
لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ
نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

الله نور السّماوات والارض: أي منوّرهما بالشّمس والقمر(١) وهادي من في السّماوات والأرض، فهم بنوره إلى الحقّ يهتدون، وبهداه من حَيْرَة الضّلالة يعتصمون(٢).

في الصّحيحين عن ابن عبّاس، كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول: اللّهمّ لك الحمد، أنت قيّم السّماوات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمد، أنت نور السّماوات والأرض ومن فيهنّ، الحديث(٣).

وفي الحديث الّذي رواه محمّد بن إسحاق في السّيرة، عن رسول الله ﷺ أنّه قال في دعائه يوم آذاه أهل الطّائف: أعوذ بنور وجهك الّذي أشرقت له الظّلمات، وصلح عليه أمر الدّنيا والآخرة، أن يَحِلّ بي غضبك، أو ينزل بي سَخَطك، لك العُتْبى(٤) حتّى ترضى، ولا حول ولا قوّة إلاّ بك(٥).

---

(١) الجلالين.

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ١٠٥ وانظر تفسير ابن كثير ٦/ ٦٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٦١.

(٤) العُتْبى: رجوع المعتوب عليه إلى ما يُرْضي العاتب. اللّسان: «عتب».

(٥) تفسير ابن كثير ٦/ ٦١ وانظر السّيرة النّبويّة لابن هشام ٢/ ٦١ حلبي تصوير بيروت.

مَثَل نوره: أي صفته في قلب المؤمن[1] ومَثَل هداه عزّ وجلّ في قلب المؤمن، قاله ابن عبّاس[2] قال الحسن: مَثَل هذا القرآن في القلب[3] وقال ابن زيد: مثل نور القرآن الّذي أنزل على رسوله ﷺ وعباده[4].

كمشكاة: المشكاة الكوّة الّتي ليست بنافذة. وهذا مَثَلٌ ضربه الله لقلب المؤمن والإيمان فيه[5] ابن سيده: كلّ كوّة ليست بنافذة مشكاة[6] ولا منفذ لها[7] وقال آخرون: عَنَى بالمشكاة صدر المؤمن، وبالمصباح القرآن والإيمان، وبالزّجاجة قلبه[8] عن أبيّ بن كعب: ﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾ قال: مثل المؤمن، قد جعل الإيمان والقرآن في صدره كمشكاة. قال: المشكاة صدره: ﴿فيها مصباح﴾ قال: والمصباح القرآن والإيمان الّذي جعل في صدره: ﴿المصباح في زجاجة﴾ قال: والزجاجة قلبه. ﴿الزّجاجة كأنّها كوكبٌ درّي تَوقَّدَ﴾ قال: فمثله ممّا استنار فيه القرآن والإيمان، كأنّه كوكبٌ درّيّ، يقول: مضيء[9].

فيها مصباح: المصباح السّراج يكون في الزّجاجة[10] قال أبيّ بن كعب: المصباح: النّور، وهو القرآن والإيمان الّذي في صدره[11] قال مجاهد وابن عبّاس

---

(١) الجلالين

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٦/ ٦١ وتفسير الطّبري ١٨/ ١٠٦.

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ١٠٦

(٤) انظر تفسير الطّبري ١٨/ ١٠٦.

(٥) معاني القرآن للفرّاء ٢/ ٢٥٢ وانظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «شكا» ١/ ٣٥١.

(٦) اللّسان: «شكا».

(٧) تفسير الطّبري ١٨/ ١٠٦.

(٨) تفسير الطّبري ١٨/ ١٠٧.

(٩) تفسير الطّبري ١٨/ ١٠٧ والقراءة الأخرى ﴿يوقَدُ﴾ انظر ص١٠٩

(١٠) تفسير الطّبري ١٨/ ١٠٧

(١١) تفسير ابن كثير ٦/ ٦٢.

جميعاً: المصباح وما فيه مثل فؤاد المؤمن وجوفه. المصباح مثل الفؤاد والكوّة مثل الجوف (١)وجعل السّراج وهو المصباح مثلاً لما في قلب المؤمن من القرآن والآيات المبيّنات(٢).

المصباح في زجاجة: الزُّجاج حجرٌ شفّاف، الواحدة زُجاجة(٣) يعني أنّ السّراج الّذي في المشكاة في القنديل وهو الزّجاجة. وذلك مثلٌ للقرآن. يقول: القرآن الّذي في قلب المؤمن الّذي أنار الله قلبه في صدره(٤).

الزّجاجة كأنّها كوكبٌ درّيّ: الكوكب في علم الفلك جِرمٌ سماويٌّ يدور حول الشّمس ويستضيء بضوئها(٥) الزّجاجة في صفائها وحسنها كالدّرّ وهي منسوبةٌ اليه لذلك من نعتها وصفتها(٦) والدُّرّة: اللّؤلؤة العظيمة. قال ابن دريد: هو ما عظم من اللّؤلؤ، والجمع درّ ودرّات ودُرَر(٧) وكوكب دُرّيّ ودِرّيّ ثاقب مضيء. فأمّا دُرّيٌّ فمنسوبٌ إلى الدّرّ. قال أبو اسحاق: من قرأه بغير همزة نسبه إلى الدّرّ في صفائه وحسنه وبياضه. وقرئت دِرّيّ، بالكسر. قال الفرّاء: ومن العرب من يقول دِرّيّ ينسبه الى الدُّرّ، كما قالوا بحرٌ لُجّيٌّ ولِجّيٌّ وسُخْريٌّ وسِخْريّ(٨) والعرب قد تسمّي الكواكبَ العظام الّتي لا تعرف أسماءها الدّراريّ بغير همز(٩) يعنى كأنّ الزّجاجة، وذلك مثلٌ لصدر المؤمن، كوكب، يقول في

---

١) تفسير الطّبري ١٨/ ١٠٨.

٢) تفسير الطّبري ١٨/ ١٠٨.

٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «زج» ١/ ٢٧٩.

٤) تفسير الطّبري ١٨/ ١٠٨.

٥) المعجم الوسيط: «الكوكب» ٧٩٣.

٦) انظر تفسير الطّبري ١٨/ ١٠٩.

٧) اللّسان: «درر».

٨) انظر اللّسان: «درر» ومعاني القرآن للفرّاء ٢/ ٢٥٢.

٩) معاني القرآن للفرّاء ٢/ ٢٥٢.

صفائها وضيائها وحسنها. وإنما يصف صدره بالنّقاء من كلّ ريب وشكٍ في أسباب الإيمان بالله وبُعْده من دنس المعاصي، كالكوكب الّذي يشبه الدّرّ في الصّفاء والضّياء والحسن(١).

يوقد: بمعنى يوقِد المصباحَ موقِدُه(٢).

من شجرةٍ مباركة: أي يستمدّ من زيت زيتون شجرة مباركة(٣).

زيتونة: بدل أو عطف بيان(٤) وزيتونة وزيتون نحو شجرة وشجر. والزّيت عصارة الزّيتون(٥).

لا شرقيةٍ ولا غربيّة: أي ليست شرقيةً وحدها حتّى لا تصيبها الشّمس إذا غربت وإنّما لها نصيبها من الشّمس بالغداة مادامت بالجانب الّذي يلي الشّرق، ثمّ لا يكون لها نصيبٌ منها إذا مالت إلى جانب الغرب. ولا هي غربيّةٌ وحدها فتصيبها الشّمس بالعشيّ إذا مالت إلى جانب الغرب ولا تصيبها بالغداة. ولكنّها شرقيةٌ غربيّة، تطلع عليها الشّمس بالغداة وتغرب عليها، فيصيبها حرّ الشّمس بالغداة والعشيّ قالوا: وإذا كانت كذلك كان أجود لزيتها(٦) وأصفى وأضوأ(٧) قال ابن عبّاس: شجرةٌ بالصّحراء، لا يظلّها جبلٌ ولا شجرٌ ولا كهف، ولا يواريها شيء، وهو أجود لزيتها(٨) وقال السّدّي: شجرة على رأس جبلٍ أو في

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ١٠٩.

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ١٠٩.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٦٢.

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ٦٢ وانظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/ ٢٣٤.

(٥) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «زيت» ١/ ٢٨٤.

(٦) تفسير الطّبري ١٨/ ١١٠.

(٧) تفسير الطّبري ١٨/ ١١٠.

(٨) تفسير ابن كثير ٦/ ٦٣.

صحراء، تصيبها الشّمس النّهار كلّه(١).

يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار: يقول تعالى ذكره: يكاد زيت هذه الزّيتونة يضيء من صفائه وحسن ضيائه، ولو لم تمسسه نار. يقول: فكيف إذا مسّته النّار. وإنّما أريد بقوله: ﴿توقّد من شجرةٍ مباركة﴾ أنّ هذا القرآن من عند الله، وأنّه كلامه، فجعل مثله ومثل كونه من عنده مثل المصباح الذي توقّدَ من الشّجرة المباركة الّتي وصفها جلّ ثناؤه في هذه الآية. وعَنَى بقوله: ﴿يكاد زيتها يضيء﴾ أنّ حجج الله تعالى ذكره على خلقه تكاد من بيانها ووضوحها تضيء لمن فكّر فيها ونظر، أو أعرض عنها ولها: ﴿ولو لم تمسسه نار﴾ يقول: ولو لم يزدها الله بياناً ووضوحاً بإنزاله هذا القرآن إليهم، منبّهاً لهم على توحيده، فكيف إذا نبّههم به وذكّرهم بآياته، فزادهم به حجّة إلى حججه عليهم قبل ذلك. فذلك بيانٌ من الله ونورٌ على البيان والنّور الّذي كان قد وضعه لهم ونصبه قبل نزوله(٢).

نورٌ على نور: قال مجاهد والسّدّي: يعني نور النّار ونور الزّيت(٣) قال أبو جعفر: وهو عندي كما ذكرت مثل القرآن. ويعني بقوله: ﴿نورٌ على نور﴾ هذا القرآن نورٌ من عند الله أنزله الى خلقه يستضيئون به، على نور، على الحجج والبيان الّذي قد نصبه لهم قبل مجيء القرآن وإنزاله إيّاه، ممّا يدلّ على حقيقة وحدانيّته. فذلك بيانٌ من الله ونورٌ على البيان والنّور الّذي كان وضعه لهم ونصبه قبل نزوله(٤).

يهدي الله لنوره من يشاء: يوفّق الله لاتّباع نوره، وهو هذا القرآن، من يشاء من عباده(٥).

---

١) انظر تفسير ابن كثير ٦/ ٦٣.

٢) تفسير الطّبري ١٨/ ١١٠

٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٦٤ وانظر تفسير الطّبري ١٨/ ١١١.

٤) تفسير الطّبري ١٨/ ١١١.

٥) تفسير الطّبري ١٨/ ١١١.

ويضرب الله الأمثال للنّاس : ويمثّل الله الأمثال والأشباه للنّاس كما مثّل لهم مثل هذا القرآن في قلب المؤمن بالمصباح في المشكاة وسائر ما في هذه الآية من الأمثال(١).

والله بكلّ شيءٍ عليم: والله يضرب الأمثال وغيرها من الأشياء كلّها ذو علم(٢).

يبدو من النّصوص المقتبسة سابقاً وممّا ذكره المفسّرون أنّ للآية الكريمة مستويين من الدّلالة، المستوى الأوّل حسّيّ، وهو يتعامل مع المحسوسات المذكورة في الآية الكريمة حتّى قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿نورٌ على نور﴾ والمستوى الآخر معنويّ يدلّ عليه قول الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة: ﴿يهدي الله لنوره من يشاء. ويضرب الله الأمثال للنّاس. والله بكلّ شيءٍ عليم﴾ كما يدلّ عليه الآيات الكريمات الثّلاث التّاليات.

ومعنى الآية الكريمة بناءً على المستوى الأوّل الحسّيّ، والله تعالى أعلم، الله تعالى نور السّموات والأرض ومنوّرهما بالشّمس والقمر وسائر النّجوم والكواكب(٣) صفة نوره جلّ وعلا في هذا الكون ككوّةٍ غير نافذةٍ في حائطٍ مكانٍ محدود المساحة مظلمٍ أساساً، ولهذا يكون دور تلك الكوة غير النّافذة بليغاً في جمع النّور وحصره فيها. في هذه الكوّة الّتي تلك صفاتها مصباح، أي سراجٌ زاهرٌ بفتيلةٍ ودهن(٤) المصباح الّذي تلك صفاته في زجاجة، أي جوهرٍ صلبٍ سهل الكسر شفّاف(٥) وفائدة الزّجاجة أنّها تمنع الهواء أن يطفيء المصباح، هذا الى سماحها للضّوء بأن يمرّ خلالها ويقوى وللنّور أن يزداد تألّقاً وانتشارا.

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ١١١.

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ١١١.

(٣) النّجم مولّدٌ للطّاقة كالشّمس، والكوكب غير مولّدٍ لها كالقمر.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «سراج» ١/ ٣٠٣.

(٥) المعجم الوسيط: «زجّ» ١/ ٣٨٩.

وإذا كان ما سبق ذكره صفةَ كلِّ زجاجة لمصباح، فإنّ زجاجة المصباح المذكور في الآية الكريمة فريدةٌ في بابها. إنّها زجاجةٌ غايةٌ في الصّفاء والنّقاء والحسن الوضاءة. إنّها زجاجةٌ تشبه الكوكب الدّرّيّ الّذي يزيّن ليل السّماء المظلمة، والّذي يشبه لصفائه ونقائه وبهائه وشدّة إشراقه اللّؤلؤة العظيمة.

لقد عرفنا أنّ المصباحَ المشتعلَ فتيلهُ بحاجةٍ الى الوقود الّذي يجعل الفتيل مشتعلاً، والسّراج مضيئاً. وثمّة أنواعٌ من الوقود تتفاوت رتبةً وعملاً. ويأتي على رأس أنواع الوقود زيت الزّيتون، ذلك الزّيت المستفاد من الشّجرة المباركة بنصّ الآية الكريمة.

إنّ المصباح في الآية الكريمة يوقد من زيت تلك الشّجرة المباركة الزّيتونة. وهو أجود أنواع الوقود. ولكنّ الأمر لا يقف عند هذا الحدّ. إنّ هذا الزّيت معصور من ثمر شجرة زيتون فريدةٍ من نوعها. إنها شجرةٌ جيّدة التّربة والموقع، فهي على رأس جبل، أو في وسط صحراء، ولذلك فانّها تنال كامل حظّها الموفور من ضياء الشّمس. إنّ ضياء الشّمس يصل شجرة الزيتون هذه صباحاً حينما تشرق الشّمس ومساءً حينما تغرب الشّمس، فهي شجرةٌ ليست شرقيةً فقط، ولا غربيةً فقط، بل هي شجرة مباركةٌ زيتونةٌ شرقيةٌ وغربيّةٌ معاً. إنّ أجود أنواع الزّيوت على الإطلاق هو الذّي يستمدّ من مثل هذه الشّجرة، ولهذا فإنّ زيتها هو الأكثر جودةً، الأشدّ إشراقاً. وإنّ زيت المصباح في الآية الكريمة يكاد يضيء بذاته قبل أن تمسّه النّار، فكيف به وقد مسّته نار المصباح الّذي يفوق نوره نور كلّ مصباح. إنّ ثمّة نور زيت الزّيتون من الشّجرة الفريدة في بابها. وإنّ ثمّة نور النّار الّتي أوقد بها المصباح. وبذلك يكون ثمّة على الحقيقة نورٌ على نور.

وهكذا تحقّق لهذا المصباح أو السّراج من الوسائل الذّاتيّة كصفاء الزّجاجة وجودة الزّيت، ومن الوسائل الخارجيّة كالكوّة الصّغيرة غير النّافذة في الحائط بالمكان الضّيّق المظلم الّذي فيه من الهواء ما يكفي المصباح ولا يطفئه، تحقّق لهذا المصباح الوسائل الّتي تجعل ضياءه قوياً ونوره ليس عليه من مزيد.

وهكذا ضرب الله سبحانه وتعالى للنّاس مثلاً لنوره جلّ وعلا بالمشكاة والمصباح. وقد أومأ الشاعر الحكيم أبو تّمام إلى هذا المعنى في هذا البيت من قصيدة يمدح بها أحمد بن المعتصم:

فالله قد ضرب الأقلَّ لنوره ∴ مثلاً من المشكاة والنِّبراس(١).

وبناءً على المستوى الآخر المعنويّ من الدّلالة، يكون معنى الآية الكريمة، والله تعالى أعلم، الله تعالى هادي من في السّماوات والأرض إلى نور الحقّ، وعاصمهم من حيرة الضّلالة. صفة نور الإيمان الّذي هدى به الخلق بإنزال القرآن الكريم على محمّد بن عبدالله ﷺ كمشكاةٍ هي بمثابة صدر المؤمن. فكما تجمع المشكاة نور المصباح، وتحتضنه، يجمع صدر المؤمن نور هَدْي القرآن الكريم ويحتضنه. وإذا كانت المشكاة فيها السّراج المزهر بالزّيت فإنّ صدر المؤمن فيه مصباح القرآن الكريم المزهر دائماً، وفيه قلبه المفطور على الإيمان المستمّد من الشّريعة الخالصة الصّافية الواصلة إليه من غير كدرٍ ولا تخليط (٢)وإذا كان السّراج في زجاجة تحميه من مختلف الأهوية إضافةً إلى كون الزّجاجة في صفائها ووضاءتها كأنّها كوكبٌ درّيّ، فإنّ مصباح القرآن الكريم مستقرٌّ في قلب المؤمن، ذلك القلب الّذي يزداد اهتداؤه وإشراقه بنور القرآن الكريم وبتعاليم الإسلام، وإنّ سراج القرآن الكريم متمكّنٌ من فؤاد المؤمن، ذلك الفؤاد الّذي يزداد إيمانه ويقينه بمقدار تفؤده، أي تحرّقه وتوقّده بالقرآن الكريم والإيمان.

وإذا كانت زجاجة المصباح بمثابة الكوكب الدّرّيّ، فانّ قلب المؤمن لسلامته من الشّكوك والرّيب، ونقائه من العيوب والدّنس، بمثابة ذلك الكوكب الدّرّيّ في السّماء، واللّؤلؤة العظيمة في الأرض. إنّ ذلك القلب كالكوكب واللّؤلؤة، لا يزداد بمرور اللّيالي والأيّام إلاّ صفاءَ مظهر، ونقاء مخبر، ودفء إيمان، وبرد يقين.

وإذا كان المصباح يشتعل بزيت شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ لا شرقيّةٍ ولا غربيّةٍ،

---

(١) ديوان أبي تمّام ٢/ ٢٥٠ ذخائر العرب ٥ دار المعارف بمصر. والنِّبراس: المصباح.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٨٤ في تفسير الآية الكريمة ٢٠ من سورة البقرة.

فإنّ القرآن الكريم، هو النّور المبين، والصّراط المستقيم، وحبل الله تعالى المتين. يزداد المؤمن بتلاوته سرورا، وبفهم معانيه إيماناً، وبتأمّله يقينا. بحر معاني القرآن الكريم ليس له ساحلٌ يُقْصَد، ولا مدىً يُحْصَر، ولا عُمْقٌ يُسْبَر. بمقدار سباحة القلب في ساحاته تمتدّ سواحله. وبمقدار فهم القلب معانيه تتّسع حدوده. وبمقدار غوص القلب في تتبّع مراميه تبتعد أعماقه. إنّ القلب الّذي باركه الله تعالى هو الّذي يستطيع أن يغترف غُرْفة من شاطيء البحر اللّجّيّ، لمعاني القرآن الكريم، ذلك الشّاطيء القريب، ومن المدى غير الواسع، والعمق غير البعيد. إنّ سواحل بحر معاني القرآن الكريم وآماده وأعماقه أقرب منها السُّهى(١).

وكما كاد زيت الشّجرة المباركة الزّيتونة غير الشرقيّة ولا الغربيّة يضيء بذاته ولو لم تمسسه نار، فكيف به وقد مسّته النّار، فإنّ آيات الله تعالى الّتي تتجلّى في كل شيءٍ بهذا الوجود، حينما يتأملها القلب الموصول بالله تعالى، تدلّ على الإله الواحد المعبود بحقٍّ دون سواه، فيزداد إيمان هذا القلب ويقينه، فيه مصباح القرآن الكريم بآياته البيّنات المعجزات، وقد ازداد إيمان هذا القلب الموصول بالله تعالى ويقينه حينما استقرّ وحينما زادت قدرة ذلك القلب المؤمن على ارتياد آفاق الآيات في هذا الوجود، الّتي تدلّ على الله تعالى الواحد المعبود، وعلى سبر أعماقها بغير حدود.

وكما كان في مجال المحسوسات نور الزّيت ونور النّار، كان في مجال المعنويّات نور آيات الله تعالى الكونيّة النّاطقة بتوحيد الله تعالى لصاحب القلب الموصول بالله تعالى، ونور آيات الذّكر الحكيم الّتي تزيد القلب المؤمن صفاءً ونقاءً وإشراقاً وإدراكاً. وهكذا يكون ثمّة نورٌ على نور.

والله سبحانه وتعالى يهدي من يشاء من عباده لنوره المتمثّل في القرآن الكريم الّذي تبيّنه سنّة المصطفى ﷺ.

---

(١) السُّهى كوكبٌ خفيٌّ من بنات نعشٍ الصّغرى. والناس يمتحنون به أبصارهم.

وهكذا يضرب الله تعالى للنّاس الأمثال الّتي لا يعقلها إلاّ العالمون، كما يمثّل الله تعالى لهم مَثَل القرآن لكريم في قلب المؤمن بالمصباح، والزّجاجة بالقلب، والمشكاة بالصّدر.

إنّ الله سبحانه وتعالى عليمٌ بكلّ شيء، ومنها ذلك الّذي يستحقّ أن يهديه من الضّلال، ويعينه على فقه الأمثال، وإدراك الآمال.

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ
وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾
رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ
ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾
لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ
مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

في بيوت أذن الله أن ترفع : يعني تعالى ذكره: الله نور السّماوات والأرض مَثَل نوره كمشكاة فيها مصباحٌ في بيوت أذن الله أن ترفع(١) عن ابن عبّاس يعني كلّ مسجد يصلّى فيه جامعٍ أو غيره (٢) أن ترفع: أن تُبْنَى(٣) كما قال جلّ ثناؤه(٤) : ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت﴾(٥) وقال آخرون: معناه أذن الله أن تُعظَّم(٦) أي بتطهيرها من الدّنس واللّغو، والأفعال والأقوال الّتي لا تليق فيها، كما قال عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عبّاس في هذه الآية الكريمة: ﴿في بيوتٍ أذن الله أن ترفع﴾ قال: نهى الله سبحانه عن اللّغو فيها. وكذا قال عكرمة وأبو صالح والضّحّاك ونافع بن جبير وأبوبكر بن سليمان بن أبي حَشْمة وسفيان ابن حسين وغيرهم من علماء المفسّرين(٧) في الصّحيحين عن أمير المؤمنين عثمان

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ١١١
(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ١١١
(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ١١١
(٤) سورة البقرة ١٢٧
(٥) تفسير الطّبري ١٨/ ١١٢
(٦) تفسير الطّبري ١٨/ ١١٢
(٧) تفسير ابن كثير ٦/ ٦٦

ابن عفّان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: من بني مسجد يبتغى به وجه الله بنى الله له مثله في الجنّة(١) وروى ابن ماجه عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: من بنى مسجداً يذكر فيه اسم الله، بنى الله له بيتا في الجنّة(٢) وروى أحمد وأهل السّنن إلاّ النّسائي عن عائشة رضي الله عنها قال: أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدّور وأن تنظف وتطيّب(٣) وقد ثبت في الصّحيحين عن رسول الله ﷺ أنّه قال: صلاة الرّجل في الجماعة تُضَعَّف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفا. وذلك أنّه إذا توضّأ فأحسن وضوءه ثمّ خرج إلى المسجد، لا يخرجه إلاّ الصّلاة، لم يَخْطُ خطوةً إلاّ رُفِع له بها درجة، وحُطَّ عنه بها خطيئة. فإذا صلّى لم تزل الملائكة تصلّى عليه مادام في مصلاّه: اللّهمّ صلّ عليه، اللّهمّ ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصّلاة(٤) والمستحبّ لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى(٥) وروى مسلم أنّ رسول الله ﷺ وسلّم قال: إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللّهمّ افتح لي أبواب رحمتك. وإذا خرج فليقل: اللّهمّ إنّي أسألك من فضلك(٦).

ويذكر فيها اسمه: بتوحيده(٧) وقال ابن عبّاس: يعنى يتلى فيها كتابه(٨)

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/٦٦

(٢) تفسير ابن كثير ٦/٦٦

(٣) تفسير ابن كثير ٦/٦٦

(٤) تفسير ابن كثير ٦/٦٩

(٥) تفسير ابن كثير ٦/٧٠

(٦) تفسير ابن كثير ٦/٧٠

(٧) الجلالين

(٨) تفسير الطّبري ١٨/١١٢ وتفسير ابن كثير ٦/٧١

يسبّح له فيها: يصلّى له في هذه البيوت(١) قال ابن عبّاس: كلّ تسبيحٍ في القرآن فهو صلاة(٢)

بالغدوّ والآصال: الغُدْوة، بالضّمّ: البُكرة مابين صلاة الغداة وطلوع الشّمس(٣) وغدا عليه غَدْواً. وغُدُوّاً، وغُدْوة: بكر(٤) وقوله تعالى ﴿بالغدوّ والآصال﴾ أي بالغدوات فعبّر بالفعل عن الوقت كما يقال: أتيتك طلوع الشمس أي في وقت طلوع الشّمس(٥) وفي الحديث: لغَدْوةٌ أو رَوْحةٌ في سبيل الله، الغَدْوة: المرّة من الغُدُوّ، وهو سير أوّل النّهار نقيض الرَّواح(٦) والآصال: العشيّات(٧) أو العشايا. يقال للعشيّة أصيلٌ وأصيلة. فجمع الأصيل أُصُل وآصال. وجمع الأصيلة أصائل(٨) قال ابن عبّاس: ﴿يسبّح له فيها بالغدوّ والآصال﴾ يصلّى له فيها بالغداة والعشيّ. يعنى بالغدوّ صلاة الغداة، ويعنى بالآصال صلاة العصر، وهما أوّل ما افترض الله من الصّلاة، فأحبّ أن يذكرهما ويذكّر بهما عباده(٩).

لا تلهيهم تجارة: أي شراء(١٠) والتّجارة التّصرّف في رأس المال طلباً للرّبح(١١).

---

(١) تفسير الطّبري ٨/١١٢

(٢) تفسير الطّبري ١٨/١١٣

(٣) اللّسان: «غدا» وصلاة الغداة صلاة الصّبح

(٤) المعجم الوسيط: «غدا» ٢/٦٤٦

(٥) اللّسان: «غدا»

(٦) اللّسان: «غدا»

(٧) تفسير الطّبري ١٨/١١٢

(٨) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «أصل» ١/٢٣

(٩) تفسير الطّبري ١٨/١١٣ وتفسير ابن كثير ٦/٧١ وفي تفسير الطّبري: «ويذكّر بهما عبادته»

(١٠) الجلالين

(١١) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «تجارة» ١/٩٤

عن ذكر الله: قال ابن عبّاس : عن الصّلاة المكتوبة(١) .

وإقام الصّلاة: وعن إقام الصّلاة بحدودها في أوقاتها (٢) وأصل المصدر من أقام إقامة(٣) وحَذْفُ هاء إقامة تخفيف(٤)

يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار: يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب من هوله، بين طمعٍ بالنّجاة وحذرٍ بالهلاك. والأبصار، أيّ ناحيةٍ يؤخذ بهم، أذات اليمين أم ذات الشّمال، ومِنْ أين يؤتَوْن كتبهم، أَمِنْ قِبَلِ الأيمان أم مِنْ قِبَلِ الشّمائل، وذلك يوم القيامة(٥)

ليجزيهم الله أحسن ماعملوا: كي يثيبهم الله يوم القيامة بأحسن أعمالهم الّتي عملوها في الدّنيا(٦)

عرفنا أنّ المصباح في الآية الكريمة السّابقة بمعنى نور القرآن الكريم الّذي يهدى للطّريقة الّتي هي أقوم. وحينما نفكّر في مشكاة هذا القرآن الكريم، والمكان الّذي يتحقّق فيه نور هذا الكتاب العزيز بأكثر من غيره من الأمكنة وذلك على غرار الكوّة غير النّافذة في حقّ السّراج، فإنّا نتبيّن بنصّ القرآن الكريم أنّ نور هداية القرآن الكريم يكون أعظم وأشمل: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾ إنّها المساجد الّتي أذن الله تعالى أن تُرْفَعَ وتُبْنَى، ويذكر فيها اسمه جلّ وعلا في الأذان والإقامة والصّلاة وتلاوة القرآن الكريم وسائر الذّكر. وفي بيوت الله تعالى هذه يسبّح لله تعالى فيها، ويصلّى، وينزّهه جلّ وعلا عن كلّ مالا يليق به عزّ وجلّ، في البكرات والعشيّات وجميع الأوقات، رجالٌ صالحون بيّنو الرّجولة، واضحو الشّهامة. إنّ هؤلاء الرّجال ذوي المروءات لا تلهيهم عن الذّكر

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/١١٣

(٢) تفسير الطّبري ١٨/١١٣

(٣) انظر تفسير الطّبري ١٨/١١٣

(٤) الجلالين

(٥) تفسير الطّبري ١٨/١١٤

(٦) تفسير الطّبري ١٨/١١٤

والصّلاة وإيتاء الزّكـاة تجارةٌ يوظّفون فيها رءوس أموالهم سـعياً وراء ربح، ولا بيعٌ يتأكّد فيه الرّبح. إنّ للبيع والشّراء وقتهما الّذي ليس منه وقت ذكر الله تعالى ذكراً كثيرا، وإقـام الصّلاة بكلّ أركانـها وواجباتها وشروطـها، وإيتاء الزّكاة أصـحابها الثّمانية بنصّ القرآن الكريم..

إنّ هؤلاء الرّجال الّذيـن تلك نعوتهم يخافـون يوم القيامة الّذي تتـقلّب فيه القلوب بين الرّجاء فـي النّجاة والخوف من العذاب، وتتقلّب فـيه الأبصار، وتميل عن الاستقامة، ولا تسـتقرّ على حال، وتتحوّل في كلّ اتجاه، أيـؤخذ بأصحابها ذات اليمين إلى الجنّة، أم ذات الـشمال إلى النّار، أيؤتَوْن كُتب أعمالـهم بأيمانهم، أم بشمائلهم ومن وراء ظهورهم.

إنّ أولئـك الرّجال الصّـالحين الّذين يـسبّحون الله تـعالى في كـلّ الأوقات ويخافون يوم القـيامة يسارعون في الخيرات ليـثيبهم الله تعالى يوم القـيامة بأحسن أعمالهم الّتى عملوها في الدّنيـا، وهذا هو العدل، وليزيدهم الله تعالى من واسع فضله فـي جنّات النّعيم، الّتـي فيها ما لاعينٌ رأت، ولا أذنٌ سمـعت، ولا خطر على قلب بشر، وهذا هو الفضل من الله تعالى.

إنّ الله سبحانـه وتعالى، يرزق من واسـع فضله، في الدّنـيا والآخرة، من يشاء من عباده، بغير حساب، والله سبحانه وتعالى ذو الفضل العظيم..

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ
بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا
وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾

والّذين كفروا: والّذين جحدوا توحيد ربّهم وكذّبوا بهذا القرآن وبمن جاء به(١)

أعمالهم : مَثَل أعمالهم(٢).

كسراب: السّراب الّذي يجرى على وجه الأرض كأنّه الماء، وهو يكون نصف النّهار، بعد الزّوال إلى صلاة العصر، يخفض كلّ شيءٍ حتّى يصير لازقاً بالأرض لا شخص له. وسُمّي سراباً لأنّه يَسْرُب سُروباً أي يجرى جرياً(٣) وينسرب، أي يدخل في السَّرَب، بمعنى الطّريق،(٤) في مرأى العين. وكان

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ١١٤

(٢) تفسير الطّبراني ١٨/ ١١٤

(٣) اللّسان : «سرب»

(٤) اللّسان : «سرب»

السّراب فيما لا حقيقة له كالشّراب فيما له حقيقة(١) والآل ماكان كالماء بين السّماء والأرض وذلك يكون أوّل النّهار يرفع كلّ شيءٍ ضُحى(٢) إلى زوال الشّمس، يرفع كلّ شيءٍ حتّى يصير آلاً أي شخصاً(٣)

بقيعة: القيعة جمع قاع، كالجيرة جمع جار. والقاع: ما انبسط من الأرض واتّسع، وفيه يكون السّراب(٤)

يحسبه الظمآن ماءً: يظنّ العطشان من النّاس السّراب ماء(٥)

حتّى إذا جاءه لم يجده شيئا: حتّى إذا جاء الظّمآن السّراب ملتمساً ماءً يستغيث به من عطشه لم يجد السّراب شيئا. فكذلك الكافرون بالله من أعمالهم الّتي عملوها في غرور. ويحسبون أنّها منجيتهم عند الله عذابه كما حسب الظّمآن الّذي رأى السّراب فظنّه ماءً يرويه من ظمئه. حتّى إذا هلك وصار إلى الحاجة إلى عمله الّذي كان يرى أنّه نافعه عند الله لم يجده ينفعه شيئاً، لأنّه كان عمله على كفرٍ بالله(٦) ولم يجد له شيئاً بالكلّيّة قد قُبل، إمّا لعدم الإخلاص، وإمّا لعدم سلوك الشّرع(٧)

ووجد الله عنده فوفّاه حسابه: ووجد الله هذا الكافرُ عند هلاكه بالمرصاد فوفّاه يوم القيامة حساب أعماله الّتي عملها في الدّنيا، وجازاه بها جزاءه الّذي يستحقّه عليها منه(٨) قال ابن عبّاس: هو مَثَلٌ ضربه الله لرجلٍ عطش فاشتدّ عطشه فرأى سراباً فحسبه ماءً فطلبه وظنّ أنّه قد قدر عليه حتى أتاه، فلمّا أتاه لم

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «سرب» ١/ ٣٠٢

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ١١٤

(٣) اللّسان: «سرب»

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ١١٤

(٥) تفسير الطّبري ١٨/ ١١٤

(٦) تفسير الطّبري ١٨/ ١١٤

(٧) تفسير ابن كثير ٦/ ٧٦

(٨) تفسير الطّبري ١٨/ ١١٥

يجده شيئاً وقُبِضَ عند ذلك. يقول: الكافر كذلك يحسب أنّ عمله مغنٍ عنه أو نافعه شيئا. ولا يكون آتياً على شيء حتّى يأتيه الموت. فأذا أتاه الموت لم يجد عمله أغنى عنه شيئا، ولم ينفعه الاّ كما نفع العطشان المشتدّ إلى السّراب(١) وهذا المثال للكفّار الدّعاة إلى كفرهم، الّذين يحسبون أنّهم على شيءٍ من الأعمال والاعتقادات، وليسوا في نفس الأمر على شيء، فمثلهم في ذلك كالسّراب الّذي يرى في القيعان من الأرض عن بُعْدٍ كأنّه بحرٌ طام(٢) وهذا المثال مثالٌ لذوى الجهل المركّب(٣)

هذا مثلٌ ضربه الله تعالى للكفّار المبتدعين ورءوس الضّلالة الصّادّين عن سبيل الله تعالى، ورغم كلّ ذلك هم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً. إنّ هؤلاء هم أصحاب الجهل المركّب، إنّهم ليسوا مع الحقيقة وليسوا على صواب ويعتقدون أنّهم على الحقيقة وعلى صواب. وإنّ هؤلاء الكافرين الضّالّين المضلّين هم الّذين أشارت إليهم سورة الكهف في قول الحقّ جلّ وعلا(٤) ﴿قل هل ننبّئكم بالأخسرين أعمالاً الّذين ضلّ سعيهم في الحياة الدّنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعا. أولئك الّذين كفروا بآيات ربّهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا. ذلك جزاؤهم جهنّم بما كفروا واتّخذوا آياتي ورسلي هزوا﴾.

ومن البيّن أنّ محور المثل السّراب بقيعة، وإنّما يكون السّراب، الّذي يبدو عن بعد كالماء، نصف النّهار، بعد الزّوال إلى العصر، وتنعكس فيه البيوت والأشجار وغيرها. وفي هذا الوقت تكون الحرارة في الصحراء في أوجها، خاصّةً حينما يكون الوقت صيفاً. وهذه الحرارة الشديدة من جنس النّار لأنها تأخذ منها بسبب. وكأنّنا في حقيقة الأمر بمثابة مثلٍ ناريّ. وهذا المثل النّاريّ يساعدنا على

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ١١٥

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٧٦

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٧٧

(٤) سورة الكهف ١٠٣ ـ ١٠٦

فهم نوع الحساب الّذي يوفّاه الكافر المعاند والعذاب الأليم الّذي ينتظره في نار الجحيم.

وتبدو شدة الحرارة على حقيقتها حينما نتبيّن أنّ الآية الكريمة قد اختارت السّراب الّذي يبدو بعد الزّوال وليس الآل الذي يبدو أوّل النّهار حينما يكون الجوّ أقلّ حرارة. وممّا يهيّء لفهم الخسران المبين للكافر المبتدع أنّ السّراب بطبعه يُخْفِي الشّخوص ويجعل الأشياء لازقةً بالأرض، بعكس الآل الّذي يرفع كلّ شيءٍ ضحى، حتّى يصير آلاً أي شخصاً.

والسّراب يُرَى في كلّ قاعٍ، أي في كلّ أرضٍ منبسطة ومتّسعة. والآية الكريمة يجيء فيها صيغة جمع قاع: ﴿كسرابٍ بقيعة﴾ فثمّة أراضٍ منبسطة واسعة موصولٍ بعضها ببعض، ولا أوّل لها ولا آخر. وكما يكون السّراب موصولاً في تلك الصّحارى الموصولة، تكون أوهام الكافر المعاند موصولةً بأنّه الأحسن صنعاً وهو الأخسر عملاً.

والآية الكريمة لا يجيء فيها القول: «وأعمال الّذين كفروا كسراب» إنّما يجيء فيها القول: ﴿والّذين كفروا أعمالهم كسراب﴾ بقصد التّنبيه ألى أنّ الأهمّ في الأمر ذلك الفريق من النّاس الجاهل جهلاً مركّباً، بحيث إنّه يجتهد في عمله السّيّيء الّذي يراه حسناً ويظنّ أنّه سوف سجازَى عليه الجزاء الحَسَن، وقد جعل الله تعالى ذلك العمل هباءً منثورا. إنّ الله سبحانه وتعالى يتفضّل بقبول الأعمال الصّالحة إذا تحقّق فيها شرطان. الشّرط الأوّل أن تكون صالحةً بمقياس الإسلام. والشّرط الآخر أن يريد العبد بعمل الصّالحات وجه ربّه الأعلى. وإنّ الكافر المعاند الصّادّ عن سبيل الله تعالى أعماله سيّئةٌ. وإذا كان ثّمة أعمالٌ صالحةٌ بمقياس الإسلام فإنّ الكافر لمّا كان لا يريد بها وجه الله تعالى فقد أحبطها عزّ وجلّ وجعلها هباءً منثورا. وهكذا أحبط الله تعالى كلّ أعمال الكافر المعاند.

إنّ هؤلاء الكافرين المعاندين مَثَلُ أعمالهم الّتي خسروها وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً مَثَلُ سرابٍ بصحارَى شاسعة موصولة، يظنّه الظّمآن الّذي يقطع تلك الصّحارى في عزّ الظّهيرة ماءً عذباً فراتاً فيجتهد في طلبه، ويزداد ظمؤه.

وكلما دنا من السّراب فرّ منه ونأى عنه إلى مكان أبعد وصحراء أوسع. وكلّما وصل الظّمآن إلى المكان الّذي كان فيه السّراب وظنّه ماءً لم يجد الماء بل لم يجد السّراب الّذي يكون قد انتقل إلى مكان أبعد. وهكذا دواليك. لا يكفّ الظّمآن عن ملاحقة السّراب، ولا يكفّ السّرابً عن الابتعاد عن الظّمآن.

وإنّ الكافر المعاند يظنّ أنّ الأعمال الّتى يقوم بها سوف تنفعه كما ينفع الماء الظّمآن حينما تشتدّ الحاجة للماء في أعماق الصّحراء في منتصف النّهار. ولكنّ تلك الأعمال قد جعلها الله تعالى هباءً منثورا، وتتّضح له هذه الحقيقة المرّة يوم القيامة حينما يشتد عطشه يوم القيامة لثواب تلك الأعمال، حاجة الظّمآن للماء في منتصف النّهار بالصّحراء. إنّ السّائر في الصّحراء كما تصدمه الحقيقة المرّة بأنّ مارآه كان سراباً وليس ماءً، فإنّ الكافر حينما يلقى الله تعالى تصدمه الحقيقة المرّة بأنّ أعماله الّتي كان يراها حسنة قد جعلها الله تعالى هباءً منثوراً، وبذلك ليس له ثوابٌ عليها، في وقت هو أحوج مايكون فيه للثّواب.

إنّ الكافر حينما يموت لايجد من أعماله شيئاً، ويجد الله تعالى عنده، ويوفّيه جلّ وعلا يوم القيامة حسابه، ويعاقبه على كفره وصدّه عن سبيل الله تعالى. إنّ الله سبحانه وتعالى سريع الحساب. وقد يكون من نصيب الكافر العذاب في الدّنيا بين يدي العذاب في الآخرة. وإنّ الآية الكريمة التّالية من سورة الأنفال تشير إلى واحدٍ من أعمال الكافرين السّيّئة وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً وسيثابون عليها. قال عزّ من قائل(١) : ﴿إنّ الّذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثمّ تكون عليهم حسرةً ثمّ يُغْلَبون. والّذين كفروا إلى جهنّم يُحْشَرون﴾.

---

(١) سورة الأنفال ٣٦

أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

أو كظلمات: وهذا مَثَلٌ آخر ضربه الله لأعمال الكفّار. يقول تعالى ذكره: ومَثَلُ أعمال هؤلاء الكفّار في أنّها عُمِلَتْ على خطأٍ وفسادٍ وضلالةٍ وحَيْرةٍ مِنْ عُمّالها فيها وعلى غير هُدى مَثَلُ ظلمات (١)

في بحر: أصل البحر كلّ مكانٍ واسعٍ جامعٍ للماء الكثير (٢)

لجّيّ: نسب البحر الى اللّجة وصفاً له بأنّه عميق كثير الماء. ولجّة البحر معظمه (٣) وتردّد أمواجه، مِنَ اللَّجاج بمعنى التّمادي والعناد في تعاطي الفعل المزجور عنه (٤). واللّام والجيم أصلٌ صحيحٌ يدلّ على تردّد الشّيء بعضه على بعض وترديد الشّيء. ومن الباب لُجُّ البحر، وهو قاموسه، أي أبعده غوراً، وكذلك لُجّته، لأنّه يتردّد بعضه على بعض (٥)

يغشاه: يغطّيه ويستره (٦)

موج: الموج في البحر ما يعلو من غوارب الماء (٧)

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/١١٦

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «بحر» ١/٤٧

(٣) تفسير الطّبري ١٨/١١٦

(٤) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «لج» ٢/٥٧٧

(٥) انظر معجم مقاييس اللّغة لابن فارس: «لج» ٥/٢٠١

(٦) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «غشى» ٢/٤٦٧

(٧) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «موج» ٢/٦١٧

إذا أخرج يده لم يكد يراها: أي لم يقارب رؤيتها من شدّة الظّلام[1]

ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور: ومن لم يرزقه الله إيماناً وهدىً من الضّلالة ومعرفةً بكتابه فماله من إيمانٍ وهدىً ومعرفة بكتابه[2] وهذا مقابلة ماقال في مَثَل المؤمنين: ﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾ فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نوراً، وعن أيماننا نوراً، وعن شمائلنا نوراً، وأن يعظم لنا نورا[3]

يقول ابن جرير[4]: «فجعل الظّلمات مثلاً لأعمالهم، والبحر اللّجّيّ مثلاً لقلب الكافر. يقول: عمل بنيّة قلبٍ قد غمره الجهل، وتغشّته الضّلالة والحيرة، كما يَغْشى هذا البحر اللّجّيّ موج، من فوقه موج، من فوقه سحاب. فكذلك قلب هذا الكافر الّذي مَثَلُ عمله مَثَلُ هذه الظلمات، يغشاه الجهل بالله، بأنّ الله ختم عليه فلا يعقل عن الله، وعلى سمعه فلا يسمع مواعظ الله، وجعل على بصره غشاوةً فلا يبصر به حجج الله. فتلك ظلماتٌ بعضها فوق بعض» قال ابن عبّاس: يَعْنِي بالظّلمات الأعمال. وبالبحر اللّجّيّ قلب الإنسان. قال: يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحاب. قال: ظلماتٌ بعضها فوق بعض. يَعْنِي بذلك الغشاوة الّتي على القلب والسّمع والبصر. وهو كقوله[5]: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوةٌ ولهم عذابٌ عظيم﴾ وكقوله[6]: ﴿أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علمٍ وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوةً فمن يهديه من بعد الله. أفلا تذكّرون﴾[7]

(١) تفسير ابن كثير ٦/٧٧

(٢) تفسير الطّبري ١٨/١١٧

(٣) تفسير ابن كثير ٦/٧٧

(٤) تفسير الطّبري ١٨/١١٦

(٥) سورة البقرة ٧

(٦) سورة الجاثية ٢٣

(٧) تفسير الطّبري ١٨/١١٦ وتفسير ابن كثير ٦/٧٧ وقد أكملنا الآيتين الكريمتين

ويرى ابن كثير أنّ هذا المثال مثال الجهل البسيط[1] يقول رحمه الله تعالى رحمة واسعة[2] : «فهذا مَثَل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلّد الّذي لايدري أين يذهب، ولا يعرف حال من يقوده، بل كما يقال في المثل للجاهل: أين تذهب؟ قال: معهم. قيل: فإلى أين يذهبون؟ قال: لا أدري».

وإنّما ذهب ابن كثير رحمه الله تعالى رحمة واسعةً إلى أنّ المثل النّاريّ يتحدّث عن الكافرين المعاندين وأنّ المثل المائيّ يتحدث عن الكافرين المقلّدين مستفيداً من سورة الحجّ عن الكافرين المعاندين في قول الحق جل وعلا[3] ﴿ومن النّاس من يجادل في الله بغير علمٍ ويتّبع كلّ شيطانٍ مريد﴾ وعن الكافرين المقلّدين في قول الحقّ جلّ وعلا[4] ﴿ومن النّاس من يجادل في الله بغير علمٍ ولا هديً ولا كتابٍ منير﴾[5] ومستفيدا كذلك من المثلين عن المنافقين في الآيات الكريمات الأربع ١٧ - ٢٠ من سورة البقرة. وهؤلاء المنافقون: «قسمان : خُلَّص، وهم المضروب لهم المثل النّاري، ومنافقون يتردّدون، تارة يظهر لهم لُمَعٌ من الإيمان وتارةً يخبو، وهم أصحاب المثل المائي، وهم أخفّ حالاً من الذين قبلهم»[6]

والمؤمنون كذلك صنفان: يقول ابن كثير رحمه الله تعالى رحمةً واسعة[7] «وقد قسم الله المؤمنين في أوّل الواقعة وآخرها، وفي سورة الإنسان، إلى قسمين: سابقون وهم المقرّبون، وأصحاب يمين وهم الأبرار.

فتلخّص من مجموع هذه الآيات الكريمات أنّ المؤمنين صنفان، مقرّبون وأبرار، وأنّ الكافرين صنفان، دعاةٌ ومقلّدون، وأنّ المنافقين أيضاً صنفان، منافقٌ

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٧٧

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٧٧

(٣) سورة الحجّ ٣

(٤) سورة الحجّ ٨

(٥) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٨٤، ٨٥

(٦) تفسير ابن كثير ١/ ٨٤

(٧) تفسير ابن كثير ١/ ٨٥

خالص، ومنافقٌ فيه شعبةٌ من نفاق، كما جاء في الصحيحين، عن عبدالله بن عمرو، عن النّبيّ ﷺ: ثلاثٌ من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدةٌ منهنّ كانت فيه خصلةٌ من النّفاق، حتى يَدَعها: مَنْ إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، ،إذا ائتمن خان» . .

أو مثل اعمال الّذين كفروا الّذين لا يهتدون بنور السّماء، ولا يتّبعون الرّسول الكريم ﷺ، ولا يصدقون القرآن الكريم، إنّما يتّبعون رؤساءهم في الكفر، وشياطينهم في الضّلالة، كظلماتٍ في أعماق بحرٍ واسع مداه، كثيرٍ ماؤه، عميقٍ غوره. والمعروف أنّ الظّلمات تكونٌ مطبقةً في أعماق هذا النّوع من البحار المحيطة. وهذا البحر العميق اللّجّيّ تعلوه الأمواج وتغشاه، بفعل العواصف، وتعلو تلك الأمواج وتغشاها أمواجٌ أخرى بفعل الأعاصير. وتلك الأمواج العالية العاتية يعلوها سحابٌ مظلمٌ لأنه مملوءٌ بالماء، ولأنّ الظّلام دامس. وهكذا الظّلمات بعضها فوق بعض، فثمّة ظلمة أعماق البحر، وظلمة الطّبقة الأولى من الموج، وظلمة الطّبقة الأخرى من الموج، وظلمة السّحاب الثّقال الّذي اشتدّ سواده في ظلمة اللّيل البهيم. إنّ من يكون في هذه الظّلمات الموحشة المخيفة، لايكاد يجرؤ على إخراج يده. ولو فرض أنه أخرج احدى يديه ومدّها فإنّه لا يكاد يقارب أن يراها، ولا يكاد يدنو من رؤيتها، فأنّى له أن يراها. وهكذا تتقلّب أعمال هذا الفريق من الكافرين في أنواعٍ من الظمات، لأنّهم يستمدّون أعمالهم الضّالّة من سادتهم في الكفر وكبرائهم في الضّلالة، ولأنّهم غير موصولين بنور السّماء. ومن لم يجعل الله تعالى له نوراً فماله من نور، لأنّه ليس وراء الإعراض عن نور السماء سوى ظلمات شياطين الإنس والجنّ، وليس بعد الحقّ إلاّ الضّلال.

ومن البيّن أنّ هذه النظرة الى المثل المائيّ من زاوية معناه الظّاهر. وإنّ التّذييل: ﴿ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور﴾ يومىء إلى أنّ للمثل معنيً آخر باطناً على نحوما بيّن العلماء.

إنّ مثل أعمال هؤلاء الكافرين الّذين يجادلون في الله تعالى بغير علمٍ

سماويّ، ولا هدىً ربّانيّ، ولا كتابٍ موحىً به من ربّ العالمين يهدى للطريقة الّتى هي أقوم، إنّما يطيعون سادتهم وكبراءهم، ويتّبعون أهواءهم، إنّ مثل أعمال هؤلاء الكافرين كظلمات مطبقة، في قلب ذلك الكافر، الّذي اتّخذ إلهه هواه، وعطّل النّعم الّتي أكرمه الله تعالى بها، وألقى مقاليده لعمي الأبصار والبصائر. إنّ ذلك القلب غير الموصول بالله تعالى يضطرب بالشّكوك والرّيب وسائر الأمراض المعنويّة كما يضطرب البحر اللّجّيّ بكلّ مافيه من ماءٍ ودابّة وشيء.

وكما كان على البحر اللّجّيّ موجٌ منع أدنى نورٍ من النّفاذ إلى الأعماق، كان على ذلك القلب غير الموصول بالله تعالى، الهائج بالشكوك، المائج بالرّيب، ختمٌ من الله تعالى، منع نور الهداية من النّفاذ إلى ذلك القلب المنصرف عن الله تعالى.

ولمّا كانت منافذ العلم والهداية ثلاثة، القلوب والسّمع والأبصار، وكان من نصيب قلب الكافر أن ختم الله تعالى عليه فمنع نور الهداية من التّسلّل والنّفاذ، كما منع الموج الأوّل النّور الحسّيّ من التسلّل والنّفاذ الى أعماق البحر اللّجّيّ، فقد بقى الحديث عن السّمع والأبصار، وهما في مقابل الموج الآخر والسحاب.

إنّ الله سبحانه وتعالى الّذي ختم على قلوب الكافرين فلا تنشرح لنور الإسلام، ختم على سمعهم فلا يسمعون صوت الحقّ سماع قبول. وهذا الختم على السّمع سدّ المنفذ الثّاني الّذي يمكن أن ينفذ منه صوت الحقّ ونور الإيمان، وذلك على غرار الموج الثّاني الّذي منع النّور الحسّيّ من الوصول إلى الموج الأوّل، وبالتّالي النّفاذ إلى أعماق البحر اللّجّيّ.

وإن الله سبحانه وتعالى الّذي ختم على قلوب الكافرين وسمعهم جعل على أبصارهم غشاوة، فلا تستطيع تلك الأبصار أن ترى النّور. ولمّا كان المقصود بالأبصار على الحقيقة البصائر الّتي أعماها الله تعالى فذلك معناه أنّ نور الهداية لا يستطيع أن يتسلّل الى تلك القلوب المنصرفة عن الله تعالى، والّتي فيها الظّلمات بعضها فوق بعض. ومن البيّن أنّ الغشاوة على الأبصار في المعنويّات تقابل السّحاب الثّقال الّذي منع أدنى نورٍ من النّفاذ إلى الموج الأعلى، فضلاً عن الموج

الأدنى أو أعماق البحر اللّجّيّ.

وحينما تكون قلوب الكافرين مملوءةً بالشكوك والرّيب وسائر العلل المعنويّة، وحينما يختم الله تعالى على قلوب الكافرين وسمعهم، ويجعل على أبصارهم غشاوة، فذلك معناه أنّ الظّلمات مطبقة في تلك القلوب. إنّ تلك الظّلمات المعنويّة الخالصة هي المستفادة من قول الحقّ جلّ وعلا في ختام الآية الكريمة: ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾.

(٦)

(يسبح للّه تعالى كلّ المخلوقات، وذكر أصنافٍ من المخلوقات دليل الملك والقدرة)

الآيات (٤١-٤٦)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ
اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ
عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

ألم تر: ألم تنظر يا محمّد بعين قلبك فتعلم(١)
أنّ الله يسبّح له: أنّ الله يصلّي له(٢)
صافّات: حال، باسطات أجنحتهن(٣)
كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه: كلّ مصلٍّ ومسبّح منهم قد علم الله صلاته وتسبيحه، أو كلّ مصلٍّ ومسبّح قد علم صلاة نفسه وتسبيحه الّذي كلّفه وألزمه(٤)

ألم تر يا محمّد بعين قلبك ويا أيّها الإنسان فتعلم أنّ الله تعالى يسبّح يحمده من في السّماوات والأرض، وينزّهه عزّ وجلّ عن كلّ ما لا يليق به، ويصلّي له جلّ وعلا، جميع المخلوقات، من ملائكة، وإنس، وجنّ، وحيوان، ونبات، وجماد. وقد قال عزّ من قائل(٥) ﴿تسبّح له السّماوات السّبع والأرض ومن فيهنّ. وإن من شيءٍ إلاّ يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم. إنّه كان حليماً غفورا﴾ وهاهي ذي الطّير تسبّح الله تعالى باسطات أجنحتهنّ في جوّ السّماء مايمسكهنّ أن يقعن عند بسط أجنحتهنّ أو قبضها إلاّ الله تعالى الّذي له وحده دون

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/١١٧
(٢) تفسير الطّبري ١٨/١١٧
(٣) الجلالين
(٤) انظر تفسير الطّبري ١٨/١١٧ والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/ ٢٤٠
(٥) سورة الإسراء ٤٤

سواه الخلق والأمر. قد علم كلّ جنسٍ من هذه المخلوقات كيف يصلّي لله تعالى ويسبّح. والله سبحانه وتعالى عليمٌ بما يفعلون أجمعين.

ولله تعالى وحده لا شريك له ملك السّماوات والأرض ومن فيهنّ ومافيهنّ، فينبغي أن يكون له وحده لا شريك له الأمر وإفراد العبادة. وإلى الله تعالى المصير يوم القيامة فيجازي كلاًّ بما عمل، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ.

ولمّا كان الإنسان يأتي على رأس قائمة العقلاء المكلّفين فذلك معناه أنّ المطلوب منه والمأمول أن يكون على رأس قائمة العابدين الموحّدين.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى
سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ
وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾
يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾

ألم تر أنّ الله يزجي سحاباً: ألم تر يامحمّد(١) أنّ الله يسوق سحاباً برفق(٢) حيث يريد(٣) ويدفعه حيث يشاء(٤) والسّحاب: الغيم فيها ماءٌ أولم يكن. وأصل السَّحب الجرّ. ومنه السّحاب إمّا لجرّ الرّيح له، أو لجرّه الماء، أو لانجراره في مرّه(٥)

ثمّ يؤلّف بينه: تأليف الله السّحاب جمعه بين متفرّقها(٦) يقول: ثمّ يؤلّف بين السّحاب. وأضاف بين إلى السّحاب ولم يذكر معه غيره، وبين لا تكون مضافةً إلاّ إلى جماعةٍ أو اثنين، لأن السّحاب في معنى جمع، واحده سحابة. كما يجمع النّخلة نخل، والتّمرة تمر. فهو نظير قول قائل: جلس فلانٌ بين النّخيل(٧)

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/١١٨

(٢) الجلالين

(٣) تفسير الطبري ١٨/١١٨

(٤) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «زجا» ١/٢٨٠

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «سحب» ١/٢٩٧

(٦) تفسير الطّبري ١٨/١١٨

(٧) تفسير الطّبري ١٨/١١٨

ركاماً: متراكماً بعضه على بعض(١)

فترى الودق يخرج من خلاله: فترى المطر يخرج من بين السّحاب(٢) والخِلال جمع خَلَل(٣) بفتح الخاء واللّام. والخلل: فُرْجةٌ بين الشيئين(٤)

من جبالٍ فيها: من السّحاب(٥)

فيصيب به من يشاء ويصرفه عمّن يشاء: فيعذّب بذلك الّذي ينزل من السّماء من جبالٍ فيها من بردٍ من يشاء فيهلكه او يهلك به زروعه وماله. ويصرفه عمّن يشاء من خلقه، يعني عن زروعهم وأموالهم(٦)

يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار: يكاد شدّة ضوء برق هذا السّحاب يذهب بأبصار من لاقى بصره. والسّنا مقصور، وهو ضوء البرق(٧)

يقلّب الله اللّيل والنّهار: يُعْقِبُ الله بين اللّيل والنّهار ويصرفهما، إذا أذهب هذا جاء هذا. واذا أذهب هذا جاء هذا(٨)

إنّ في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار: لعبرةً لمن اعتبر به وعظةً لمن اتّعظ به ممّن له فهمٌ وعقل(٩) والأبصار جمع البَصَر. والبصر يقال للجارحة النّاظرة، وللقوّة الّتي فيها. ويقال لقوّة القلب المدركة بصيرة وبَصَر. وجمع البصيرة بصائر، وجمع البصر أبصار(١٠)

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/١١٨

(٢) تفسير الطّبري ١٨/١١٨ ومعاني القرآن للفرّاء ٢/٢٥٦٠

(٣) تفسير الطّبري ١٨/١١٨ وفي البحر المحيط ٦/ ٤٦٤ : «كجبال وجَبَل»

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «خل» ١/ ٢٠٤

(٥) تفسير ابن كثير ٦/٧٨

(٦) تفسير الطّبري ١٨/١١٨ وانظر البحر المحيط ٦/ ٤٦٥

(٧) تفسير الطّبري ١٨/١١٩

(٨) تفسير الطّبري١٨/ ١١٩

(٩) تفسير الطّبري ١٨/ ١١٩

(١٠) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «بصر» ١/ ٦٢

ألم تر يا محمّد ويا أيّها الإنسان أنّ الله تعالى اللّطيف الخبير يسوق سحاباً برفق، ويدفعه بلطف، ثمّ يؤلّف بين أجزائه، ويجمع بين قطَعه، بحيث تتألّف سحابةٌ واحدةٌ كبيرة، ثمّ يجعل الله سبحانه وتعالى ذلك السَّحاب متراكماً بعضه فوق بعض، ومتراكباً بعضه فوق بعض، فكأنّه الجبال العالية، فترى أيّها الإنسان المطر يخرج بإرادة الله تعالى من خلال السّحاب وفروجه. والله سبحانه وتعالى ينزّل من السّماء، ومن جبال السّحب فيها من بَرَد، ومن مطرٍ يَبْرُد في الهواء فيصلب(١) فيصيب به عزّ وجلّ من يشاء من عباده فيعذّبهم، ويصرفه عمّن يشاء فيرحمهم. ويكاد ضوء ذلك البرق لشدّته وتتابعه يذهب بالأبصار معه ويعمي العيون.

والله سبحانه وتعالى يقلّب اللّيل والنّهار ويصرّفهما فيذهب هذا ويجيء ذاك، ويطول هذا على حساب ذاك، وذاك على حساب هذا، ويجعل هذا مضيئا وذاك مظلما. وهكذا. إنّ في إنشاء السّحب، وإنزال المطر والبرد، وقوّة لمعان البرق وتتابعه، وتقليب اللّيل والنّهار، لعبرة لأولى البصائر النّيّرة، وعظةً لأولى العقول الرّاشدة.

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «برد» ١ / ٥٤

وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾

والله خلق كلّ دابّةٍ من ماء: الدّابّة اسمٌ لمادبّ من الحيوان، مميّزةً وغيرَ مميّزة، وفي التنزيل العزيز: ﴿والله خلق كل دابّةٍ من ماء، فمنهم من يمشي على بطنه﴾ وَلمّا كان لما يعقل ولما لا يعقل قيل: فمنهم. ولو كان لما لا يعقل لقيل: فمنها أو فمنهنّ(١) دبّ النّمل وغيره من الحيوان على الأرض، يَدِبّ دبّاً ودبيباً: مَشَى على هِينَته(٢)

والله تعالى خلق كلَّ مايدبّ على الأرض من الحيوان ويمشي عليها من ماءٍ واحد. فمنهم من يمشي على بطنه كالحيّات وما أشبهها، ومنهم من يمشي على رجلين كالإنسان والطّير، ومنهم من يمشي على أربع كالبهائم والأنعام. وكأنّ ترتيب هذه الأنواع أراد التّنبيه على الأعجب فالّذي يليه. إنّ الأعجب الّذي يمشي على بطنه، يليه الّذي يمشي على رجلين، يليه الّذي يمشي على أربع. والله سبحانه وتعالى يخلق مايشاء ممّا نعلم، وما لا نعلم. إنّ الله تعالى على كلّ شيءٍ قدير، فلا يعجزه عزّ وجلّ شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

---

(١) اللّسان: «دبب»

(٢) اللّسان: «دبب»

لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ
وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

لقد أنـزل الله تعالى فـي القرآن الكريم آيـاتٍ بيّنات، وفـي الكتاب الـعزيز معجزاتٍ باهرات. وبذلك تحقّق هدى الدّلالة والإرشاد بواسطة هذا الكتاب العزيز الّذي لايأتـيه الباطل مـن بين يديه ولا من خـلفه تنزيـلٌ من حكيمٍ حـميد. والله سبحانه وتعالى يهدي من يشاء هدايته إلى صراطٍ مستقيم هو دين الإسلام العظيم. وبذلك تـشير الآية الكـريمة في شقّهـا الآخر إلى هدى الـتّوفيق. وهذا الـنّوع من الهدى لا يتحقّق إلاّ بإذن الله تعالى وحده لا شريك له.